البوصيري إمام المديح النبوي

Al-Busiri, the Imam of the Prophet's praise

محمد فتحي فرج*

mffbayomy@yahoo.com

ملخص:

تهدف هذه الدِّراسة إلى إعطاء فكرة عامة مختصرة عن الإمام البوصيري، وعصره، وشعره، مع إشارة خاصة إلى قصيدته الشهيرة "البردة" وبيان قيمتها في شعر المديح النبوي.

وقد خلصت الدِّراسة إلى أن قصيدة "البردة" من أعظم القصائد المكتوبة في مدح الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم.

يستمدُّ الشاعر فكرة القصيدة من معرفة الشَّاعر بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وثقافته وبيئته العربيَّة والإسلاميَّة، إلى جانب بعض المفاهيم الإسلاميَّة المتعارف عليها.

الكلمات المفتاحية: البوصيري – قصيدة البردة – شعر المديح النبوي – الشعر في العصر الفاطمي.

* أستاذ علم الحيوان بجامعتي مصر للعلوم والتكنولوجيا، والمنوفية.

Abstract:

This study aims to give a general and brief idea about Imam Al-Busairy, his era and his poetry, with a special reference to his famous poem entitled Al-Burdah, with an indication of its value in the poetry of the Prophet's praise.

The study concluded that the Burdah poem is one of the greatest poems written in praise of the Messenger, peace be upon him (PBUH).

The poet derives the idea of the poem from the poet's knowledge of the Prophet, (PBUH), and his Arab and Islamic culture and environment, along with some well-known Islamic concepts.

Keywords: Al-Busairy – Poem of Al-Burdah - Prophetic praise poetry - Poetry in the Fatimid Era

الشعر "ديوان العرب" –كما يقولون– إذ فيه سجل شامل لأيامهم، ورَصْدٌ حافل بمنجزاتهم، وتوثيقٌ يُعوَّل عليه لوقائعهم، وهو دفترُ أنسابهم وأحسابهم، وبه الكثير مما آمنوا به من قيمهم وأفكارهم ومعتقداتهم؛ ولهذا كله فقد قال عنه ابن سلَّام الجُمَحِي فى "طبقاته": "كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان عِلمهم، ومُنتهى حُكْمِهم، به يأخذون، وإليه يصيرون. ولهذا فقد كان الشعر يرفع من مكانة الرجل في قبيلته وبيْن أقرانه من القبائل الأخرى. قال ابن سلَّام: قال ابن عوْن، عن ابن سيرين، قال: قال عمر بن الخطاب: "كان الشِّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُّ منه"[1].

كما كانت مَلَكة الشعر من مُقوِّمات الرجل المثالي لدى العرب، لا سيما إذا ما اجتمع قول الشِّعر مع المهارة في الفروسيَّة وإجادة الطَّعن وفنون القتال، وإلى هذا يُشير ابن قُتيبة الدينوري في "عيون الأخبار" بقوله: "كانت العرب تصف الرجلَ بالكامل إذا كان يكتب، ويُحسنُ الرَّمْيَ، ويجيد العَوْم وهي السباحة، ويقول الشِّعر"[2].

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبدالله بن قسيط، عن أبي الحسن سالم البراد، قال: لما نزلت: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}. الشعراء: 224، جاء حسَّان ابن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء. فتلا النبى صلَّى الله عليه وسلَّم {إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}. الشُّعراء: من الآية 227، قال: "أنتم"، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}. الشُّعراء: من الآية 227. قال: "أنتم"،

{وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا}. الشُّعراء: من الآية 227، قال: "أنتم"[3]. (رواه ابن أبي حاتم. وابن جرير، من رواية ابن إسحاق).

ويُعقِّب على هذا أحد الباحثين[4] بقوله: وواضح من هذه الآيات أن القرآن الكريم إنّما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرَّسول الكريم – صلَّى الله عليه وسلَّم– ويهاجمون الإسلام. فهي ليست حُكمًا عامًّا على الشُّعراء جميعًا بدليل ذلك الاستثناء الذي تُختم به، والذي يستثني فيه القرآن الشُّعراء المؤمنين؛ حيث يقول: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}. الشُّعراء: 227.

فموقف القرآن الكريم من الشِّعر والشُّعراء واضح كلُّ الوضوح في هذه الآيات، فقد حارب كلَّ من استغلَّ شعره في التطاول على الدِّين الحنيف، وجعل غايته النَّيْل منه ومن رسوله الأمين، أمَّا من شرح الله قلبَه للإيمان، وسخَّر موهبته للدِّفاع والذَّود عن هذا الدِّين ورسوله الكريم فقد أيَّده الله وباركه رسوله – صلَّى الله عليه وسلم.

وما ينطبق على الشُّعراء في عصر المبعث ينطبق أيضًا على مَن جاء بعدهم إلى يوم الدِّين، فكلُّ من سخَّر موهبته الشِّعريَّة في ترسيخ قيم الخير والحقِّ والجمال في إطار ما أحلَّه الله تعالى، فهو يندرج ضمن أولئك الذين استثنتهم الآية الكريمة وكانوا موضع إعجاب النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– بهم وتشجيعه لهم.

الشعر والأدب في مصر منذ العصر الفاطمي:

يرى بعض مؤرخي الأدب أنَّه قد انتعش وازدهر في العصر الفاطمي، بل وأوضحوا لنا دواعي هذا الانتعاش وأسبابَه، ومنها أن خلفاء العصر الفاطمي كانوا يتميزون بالفصاحة والبلاغة، فمنهم مَن ينظم الشِّعر، ومنهم مَن يستمع إليه ويتذوقه ويستمتع به، ومنهم مَن كان صاحب لسان وفصاحة يخطب في النَّاس فيستولي على إعجابهم.

ومن هذه الدواعي أيضًا الثَّراء الذي كانت عليه الدَّولة الفاطميَّة، ولهذا الثَّراء مظاهر تستتبعه في مصر، ومنها أن يكون للأدب مقام رفيع، وسوق مزدهرة. ومن العوامل التى ساعدت أيضًا على ازدهار الشِّعر والأدب في مصر إبان ذلك العصر استقرار الدولة واستتباب أمورها(5).

أما الأمر الآخر فهو مبالغة الفاطميين بالاحتفال بالمواسم الإسلاميَّة والأعياد وغيرها من المواسم غير الإسلاميَّة كذلك، واشتهر احتفال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبي وليلة النِّصف من شعبان. ويقال إن العرائس المصنوعة من السكر، والحلوى السمسمية والسكرية، وغيرها من هدايا الموالد المصرية –المرتبطة بالمتصوفين– في العصر الحاضر ترجع إلى أيام الفاطميين(6).

وقد تلا العصرُ الأيوبيّ العصرَ الفاطميّ، ولمَّا كان التاريخ عبارة عن حلقات متصلة بعضها ببعض، وأن الدول والعصور السياسيَّة قد صُنِّفت على أسس سياسية، ترجع في المقام الأوَّل لانتقال السلطة السياسيَّة من أيدي مجموعة من الحكَّام إلى آخرين، إلا أن الشُّعوب هي الرَّكيزة الباقية والمستمرة،

ومِنْ ثَمَّ فإنَّ خصائصها لا تتغير بين يوم وليلة حينما تؤول كراسي الحكم من فئة إلى أخرى، والدَّليل على هذا أن الخلافة الفاطمية زالت في صمت وسهولة، وأنَّ صلاح الدِّين لم يجد مقاومة عندما قام بإلغاء الدعاء في الخطبة للخليفة الفاطمي في صلاة الجمعة، وحينما زالت الدولة الفاطميَّة ظل المصريون على موقفهم الهادئ. ولهذا، فإنَّ الخصائص العامة التي ذكرناها آنفًا حول حالة الشِّعر والأدب والبلاغة في العصر الفاطمي لم تتغير فجأة بقدوم العصر الأيوبي الذي وُلِدَ فيه البوصيري.

أما الخصيصة التى استجدت في هذا العصر فهي الاهتمامُ البالغُ بالعلوم النَّقلية، وانتشار التصوف والمتصوفة، في طول البلاد وعرضها في ذلك العصر كما لم تنتشر في أي عصر آخر. وفي هذا يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: "أمَّا الحياة المذهبية في مصر في ذلك العصر، فنرى المذهب الأشعري قد زحف إلى مصر، وقوي شأنه فيها بدخول صلاح الدِّين إليها، فمالت مصر يومئذ إلى العلوم النقليَّة أكثر من ميلها إلى العلوم العقليَّة، وظهرت فيها العناية بالتَّصوف بحيث صرفتها هذه العناية نفسها عن غيره من أمور الدنيا"[(7)].

أما العناية بالتَّصوف فقد ترجع إلى عوامل عِدَّة من أهمها: افتقاد العدل الاجتماعي في المجتمع المصري في تلك الحقبة، ومنها: الانسجام والتوافق بين العناصر التى تُكوِّن بنية هذا المجتمع، فلقد كانت مصر في القرن السابع الهجري في قبضة الأيوبيين والمماليك؛ أقدارها في أيديهم، وممتلكاتها في حوزتهم، ولم يكن للشعب المصري أي تأثير في نظام الحكم أو تصرفات السلطة، ولم يكن لأحد من المصريين –أو حتى الذين ينحدرون من أصل

عربي– أية ممتلكات في وطنه، ولقد حاول هؤلاء استرجاع حقوقهم بالانتفاضات المتتالية، ولكنهم أخفقوا أمام جبروت السلطة وبطشها. ولأنهم افتقدوا العدل في الدنيا فقد دفعهم حلم التعويض في الحياة الآخرة إلى الانغماس في التَّصوف، والزهد في مغانم الدنيا. لقد أحسَّ المصريون في مصر –خلال هذا العصر– بالغبن الواقع عليهم، وبأن حقوقهم المغتصبة لا سبيل إليها في الدنيا؛ ومِنْ ثمَّ فلينتظروا الجزاء العادل في الآخرة، ولنترك هذه الدنيا لطلابها ينالون مغانمها على مذبح الشرف والكرامة، وكلِّ القيم المضيئة.

وفي بحث حديث حول الشِّعر الصوفي في عصر الأيوبيين، يرى الباحث أنه عصر تنازعت النُّفوسَ فيه عاملان مختلفان: عامل التَّصوُّف والتَّقوى لدوام الحروب وتوالي الكروب من المجاعات؛ أمَّا العامل الآخر فيتمثَّل في انتشار الفسوق والمجون لانحلال الأخلاق، وتحكُّم الشَّهوات، وانتشار المخدِّرات[8].

فلقد كانت الأوضاع الاجتماعيَّة –بالجملة– سيئة، وحينما تفشل الثورة في تغيير هذه الأوضاع الاجتماعيَّة السيئة، فحينئذ لا يتبقى إلا الاستسلام للاتجاهات السائدة، بيْدَ أنَّ النُّفوس الكبيرة تأبى الاستسلام والإذعان، وهنا تأتي الطريق الأخرى، التي تعطي تلك النُّفوس الكبيرة الغذاء والغناء بدلًا من الإحساس بالقهر والتمزق والمعاناة، "إنه طريق الله" ومن هنا كان سرُّ إقبال أهل مصر على التَّصوُّف والدُّخول في حظيرته، سواء كان بعضُه يعتمد على الأصول والمنطق والعقل وقواعد الشَّريعة، أو كان بعضه الآخر يعتمد على

الخرافة والأخيلة واستغلال العواطف الدِّينيَّة المتأججة لترويج مزاعم دينيَّة لا سند لها من الشَّريعة الغرَّاء(9).

أما الدُّكتور حمزة فله رأي آخر طريف في انتشار التَّصوُّف في تلك الحقبة من تاريخ مصر، وفحواه: إن التَّصوُّف في هذا العصر كان نوعًا من السمو الروحي والعقلي فوق العصبيَّات الدِّينيَّة المختلفة، وهي العصبيَّات التي ولَّدت بين أهل هذه الديانات حروبًا طاحنة من أهمها الحروب الصليبيَّة.

ثم يردف الدكتور حمزة قائلًا: ولا يؤيدني في هذا الرأي غير المذاهب الصوفيَّة التي سنشير إليها، ومنها مذهب المعرفة، ومذهب وحدة الوجود، وكلها مذاهب تصرّحِ بأنَّه لا فرق بين دين ودين، لأن الله تعالى عام للجميع. أفلا يكون هذا نوعًا من السموِّ الروحي عن هذه العصبيات الدِّينيَّة التي أتعبت القوم؟

فإذا أضيف إلى ذلك كله أن الشَّعب المصري شعب متدين بفطرته، وأن للدين سلطانًا عظيمًا على نفسه وقلبه، وأن مصر خضعت زمانًا لنظام الرهبانية المسيحيَّة؛ عرفنا السبب الذي من أجله كانت مصر تربة صالحة لنمو التَّصوُّف، حتَّى كان من الباحثين من ذهب إلى أن التَّصوُّف نظام مصري النَّشأة، فذكر "منز" أن أول ظهور للصُّوفيَّة كان حوالي عام 200هـ، وذلك في مصر مهد المسيحيَّة. ففى هذا العام الهجري ظهرت بالأسكندرية طائفة يُسمون الصوفيَّة، يأمرون بالمعروف –فيما زعموا– ويعارضون السُّلطان في أمره؛ وترأَّس عليهم رجلٌ منهم يقال له أبو عبدالرحمن الصوفي. ومعنى ذلك أن هؤلاء الصُّوفيَّة، كانوا جماعة أتقياء أصحاب نزعة عمليَّة {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}، ويتدخلون في حياة المجتمع تدخلًا شديدَ الوطأة، ويحكي المؤرخون

منهم أنَّهم كانوا يقنعون قضاة مصر وولاتها في زمانهم بضرورة الإصلاح، ويحملونهم على الإتيان بأعمال لا يرضى عنها الخليفة. ومن ثمَّ كان تأثير المتصوفة في أول أمرهم أشبه بتأثير المعتزلة في القرنين الثالث والرابع للهجرة[10].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ كل ما يحدث تسوق إليه رغبة تواقة إلى الخلاص من واقع كئيب. وأيُّ واقع أعتم من أن يصبح أهل الوطن غرباء في وطنهم، وكما عبَّر عن ذلك أبو حيان التوحيدي بقوله: إن أقسى أنواع الغربة هي غربة الإنسان في بلده، وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه[11]. فعندما كان يتاح لأي مسلم أن يتولى شأنًا من شئون الوطن كان يتحتَّم أن يكون هذا المسلم غير مصري، أو على الأقل لا ينحدر من أصل عربي.

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار، وهي أن من يتأمَّل أقطاب الصُّوفيَّة في القرن السابع الهجري في مصر يجد أنهم ينحدرون من أصل عربي مثل: السيد أحمد البدوي والشيخ إبراهيم الدسوقي وأبي الحجاج الأقصري، وغيرهم. ودلالة هذا ببساطة تتبلور في أن الإحساس بالغبن والاضطهاد والغربة، كل ذلك قد نحا بالمصريين منحى آخر غير دنيوي؛ حيث سلكوا طريق الله، وهو هنا طريق التَّصوُّف.

أما ما تعرَّضت له ديار المسلمين من انقضاض الغزو الخارجي كالحملات الصليبيَّة التي تهددت ليس فقط أوطان المسلمين ولكن دينهم ذاته، قد جعلتهم يزهدون في الدنيا ويقبِلون على الآخرة، التي تمثَّلت في نظر الكثرة الكاثرة بالاتجاه نحو التَّصوُّف. هذا، إضافة إلى تسلُّط حكام البلاد الدُّخلاء، الذين كانوا

يملئون الأرض جورًا وفسادًا، ويغتصبون خيراته وينكِّلون بأبنائه، وفي مناخ مثل هذا: إما أن تتولَّد نزعة تتأكد من أن "كل شيء ما خلا الله باطل"، و"قبض الريح"، أو أن تتدافع نزعة اللامبلاة والانحلال والتَّهالك على الشهوات وانتهاز الفرص.. تحت شعار: "أنا ومن بعدي الطوفان"[12].

مولد البوصيري ونشأته:

في تلك البيئة وذلك العصر وُلد الكاتب الشَّاعر المتصوِّف، صاحب البردة والهمزية، شرف الدِّين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري في دلاص يوم الثلاثاء الأول من شهر شوال سنة 608 هجريَّة، وكان أبوه من بوصير وأمه من دلاص، إحدى قرى محافظة بني سويف (الآن)، فاكتسب النسبة المركبة "دلاصيري" كما نقول عن خريج "دار العلوم" درعمي، إلا أنَّه وقد نشأ في بوصير قوريدس من قرى بني سويف، فقد عُرف بالبوصيري، ثم انتقل إلى القاهرة.

أما مؤرخ الأدب الدكتور شوقي ضيف –رحمه الله– فله رأي آخر مغاير إذ يرى أن لقب "البوصيري" منسوب إلى قرية "أبو صير"، وهي إحدى قرى محافظة الجيزة[13]. وقد توفي البوصيري سنة 696 هـ[14].

طلبه للعلم:

حفظ البوصيري القرآن الكريم، ثم أخذ يطلب العلم، فتعلَّم علوم العربيَّة والأدب على علماء عصره حتى وقف على أغراضهما، وجمع أشتاتهما، فغدا بحر العلم الزاخر، وبدْر العلماء الزاهر، حتى إن الرِّحال قد شُدَّت إليه، فأخذ عنه

العلمَ طائفة من علماء عصره كأبي حيان أثير الدِّين محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، وفتح الدِّين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله الشافعي اليعمري الأندلسي الإشبيلي المصري المعروف بابن سيد الناس، وغيرهما من العلماء الذين نهلوا من فيض علمه واستفادوا من غزير أدبه.

قال الشِّعر البليغ في جدِّه وهزله، ونظم من جزله ومرذوله، وفصيحه وعاميه، فبلغ في مجاليه شأوًا كبيرًا حتى إن السيوطي ذكر في كتابه "حسن المحاضرة" مقولة الحافظ فتح الدِّين بن سيد الناس عنه: "هو أحسن شعرًا من الجزار والوراق". كما أنَّ له في النثر من الآثار والرسائل ما يضارع شعره.

وظائفه:

كان البوصيري فقيرًا لكنَّه كان يُحسِن الخطّ، وقد ذكر الأستاذ حسن قاسم حبش في كتابه "نفائس الخط العربي": إنه كان جيِّد الخطّ، أخذ عن إبراهيم بن أبي عبدالله بن إبراهيم المصري، وكان في الأسبوع الواحد يتعلَّم عليه أكثر من ألف طالب. لهذا، عمل البوصيري فترة من الزمان بكتابة شواهد القبور.

ولمَّا كان لقلمه من المهارة والأناقة في الكتابة، فقد اتخذ كتابة الدواوين صناعة، فشغل مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم. كما باشر مديريَّة الشرقيَّة مدة من الزمن؛ حيث عمل رئيسًا لمباشري الجبايات بالشرقيَّة، وفي هذه الفترة جعل من بلبيس مقامه. وعَهِد من أمور الموظفين والمستخدمين ما جعله يهجوهم كثيرًا في شعره.

من سمات شعره:

يمتاز شعره بالرَّصانة والجزالة، وحسن استعمال البديع في مدائحه النبويَّة، إلا أنه لم يحفِل بهذه المزايا في غيرها؛ حيث جارى شعراء عصره في أسلوبهم، حتى في استعمال بعض الألفاظ المولدة، والأهاجي المُقذعة، ثم لم يلبث أن تنسَّك وتصوَّف فانصرف إلى المدائح النبويَّة.

وقد تميَّز شعره بإيراد النكات المستملحة، كما اهتمَّ بالنَّقد الاجتماعي، الذي لا يخلو من ذكاء ويقظة ضمير، كما تعرَّض في بعضه إلى شكوى حاله، والتذمر من أحوال الموظفين، ومن ثمَّ فشعره مهمٌّ تاريخيًّا من هذه الزاوية؛ حيث إنَّه بمثابة المرآة التي تعكس الأحوال الاجتماعية والسياسيَّة في عصره، وما جرى فيه من أحداث؛ ذلك أن البوصيري –وإن اشتهر بالمديح النبوي– كان متفاعلًا مع الواقع، يعيش حياة النَّاس ويشعر بمعاناتهم جرَّاء ما تفشى من فساد، فضلًا عن إن حياته كانت حافلة بالأحداث المتنوعة التي ظهرت أصداؤها في شعره(15).

نقده لمستخدمي عصره:

وحينما خَبِرَ من مرؤوسيه الافتقار إلى الأمانة، ولقي من هؤلاء المستخدمين والموظفين الذين أحاطوا به ما لاقى من أعمال يأباها الدِّين، وتتنافر مع صادق اليقين، وعانى من أخلاقهم ما لا يلائم طبعه، ولا يناسب عِفَّته وصلاحه، ضاق بهم صدرُه كثيرًا، حتى إنَّه أنشأ في ذمهم القصائد الطوال، ذكر فيها أنهم كانوا يسرقون الغلال، وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير والديباج، ولا

شربوا الخمور، وأن من الكتّاب طائفة تنسَّكت وعُدَّت من الزُّهاد مع أنَّها تملأ بطونها بالسُّحت، وتأكل أموال اليتامى بالباطل، كما يذكر أن من القضاة من خانوا الأمانة، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، كما لم يخلُ شعره من نقد المسلمين والأقباط واليهود بمصر في ذلك الوقت، لتنافس كل فريق منهم الآخر في الاستئثار والحرص على المصالح الشخصية، ويبدو أن هذه من سمات عصور التخلف والفساد.

ومن هذه القصائد، ما بدأ إحداها بقوله:

نَقَدَّت طَوَائفَ المُستَخدِمينا فَلَمْ أرَ فِيهمو حُـرًّا أَمِينا

فَقَد عاشَرْتُهم وَلَبِثْتُ فِيهم معَ التَّجريبِ من عُمْرِي سِنينا

فَكتابُ الشَّمالِ همو جميعًا فلا صحبَت شِمالُهم اليمينا

فَكَم سَرقَوا الغِلالَ وما عَرِفنا بهم فَكَأنَّهم سَرَقُوا العُيُونا

ولَولا ذاكَ ما لَبِسوا حَرِيرا وَلا شَرِبوا خُمُور الأندَرينا

وَلا رَبوا من المُردانِ مُردا كأغصانٍ يملن وينحنينا

ولم يترك فيها مسلمًا، ولا يهوديًّا، ولا نصرانيًّا إلا ونقده نقدًا لاذعًا، ومن ذلك قوله فيهم:

تَفَقَّهت القُضَاة وَخَانَ كلٌّ أَمَانَتَه وسَمُّوه الأمينا

وما أخشى على أموالِ مصرَ سوى مِن مَعْشَرٍ يتأولونا

يقولُ المُسلمون لنا حقُوقا بِها ولنحن أوْلى الآخذينا

وقالَ القِبْطُ نحن ملوكَ مصرَ وأنْ سِواهمُ هم غَاصِبُونا

وحَلَلَتِ اليَهود بيومِ سَبْت لهم مالُ الطَّوائف أجمعينا

وهي قصيدة طويلة، نكتفي بالقطعة التي اقتطفناها منها، وهي قصيدة مشهورة، غير أن شهرتها -كما يقول الدكتور زكي مبارك[16]- لا ترجع إلى قيمتها الأدبيَّة؛ لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وإنّما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والنَّاس يبغضون الموظفين حين يُعرَفون بالطمع والاستبداد. ثم يضيف الدكتور مبارك: ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخيَّة، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر، وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين هذه الطوائف من المنافسات، وهي كذلك شاهد على عيوب وفساد الإدارة في ذلك الحين.

وقد أثارت عليه هذه القصيدة ثائرة المستخدمين، فأخذوا يكيدون له، ويدسُّون له الدسائس، وينصبون له الشراك، حتى لقد سرقوا حمارته فقال فيهم:

أرى المُستخدمينا مَشَوا جَميعا   على غيرِ الصِّراطِ المُستَقيم
مَعَاشِر لو ولوا جنَّات عَدنٍ   لَصارَت منهم نارُ الجحيم
فما مِن بَلدة إلَّا ومنهم   عليها كلُّ شَيْطانٍ رجيم
فلو كان النُّجوم لهم رُجُوما   إذَن خَلَتِ السَّماءُ من النُّجوم

ولهذا كره هؤلاء الأفاكين من المستخدمين والموظفين، بل إنَّه قد بلغ من شدة حنقه بهم، وغضبه الشديد عليهم، أن دعا عليهم في بعض قصائده، وفي هذا يقول البوصيري – رحمه الله:

فلا بُورِك المُستَخدِمون عصابة   فَكَم ظالمٍ منهم علىَّ تعصبا
إذا ما بَرَى أقلامَه خِلت أنَّه   يَسنّ له ظُفُرًا ونابًا ومخلبا

ولهذه الأمور التي لم يتوقعها منهم، فقد زهِدَ الوظيفة، بل وانصرف عن متع الدنيا، وانقطع للتصوُّف، مُتخِذًا من مدينة الإسكندرية مقامًا له. وقد تُوفِّي الإمام البوصيري سنة 696 هجريَّة (1295م) يالإسكندرية، وله بشاطئها قبر يُزار، ويتصل به مسجد كبير تُدَّرسُ به العلومُ الدِّينيَّة.

اتجاه البوصيري الصوفي:

طبقًا للطبيعة البشريَّة فإنَّ النَّاس الذين يعيشون فيما يشبه العصر الذي عاش فيه البوصيري يسلكون –بشكل عام– طريقًا من طريقين؛ إما طريق مهلكة وهي التكالب على الدنيا بأيَّة وسيلة كانت وعلى أي وجه كان –كما أشار هو فيما سقناه من نماذج من قصائده التي ينقد فيها سلوكهم ومثالبهم– وإمَّا أن يتجهوا اتجاهًا مغايرًا وهو طريق الزهد في الدنيا، والرضا بما يحصلون من نصيبهم فيها باعتبارها –في النهاية– دنيا فانية، وهذا مسلك المتصوِّفة الزاهدين في متاع الدنيا المقبلين بجُلِّ اهتمامهم بالآخرة. وآثر البوصيري طبقًا لطبيعته الطريق الثَّانية، وأعني بها طريق الزهد والتصوف؛ ولذا فقد حفل ديوانه بقصائد تشي بهذا الاتجاه الذي آثره الرجل والذي يعبِّر بصدق عن أزمة عصره ووجهة نظره إزاء ما يشيع فيه من سلوكيات لا يرضى عنها؛ ذلك أن شعر الشاعر المطبوع يدلُّ عليه، وهناك من النُّقَّاد مَن يستلهمون الملامح والسِّمات الشخصيَّة والخطوط العريضة لحياة الشاعر من شعره وقصائده مهما بعُدَت المسافة الزمنيَّة بين الدَّارس وشعر الشَّاعر محلّ الدِّراسة، والمثل الذي يُلِحُّ عليّ في هذا السياق هو ما صنعه العقاد مع ابن الرومي حينما قدَّم لنا صورة هذا الشاعر العباسي

من شعره، من خلال دراسته الرائدة في هذا المجال بعنوان :"ابن الرومي: حياته من شعره".

ولهذا جاءت معظم قصائد ديوانه للتَّعبير عن هويته واتجاهه العام، وموقفه من عصره، سواء كانت مديحًا أم هجاء أم سخرية أم شكوى[17]. وكان من الطبيعي أن تكثر المدائح النبوية في ديوانه، ومن أبرزها "بردته" التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي عني فيها برصد الخطوط العريضة في حياة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم المباركة بأسلوبه الشعري المميز الذي ينبع من منطلق الإخلاص، والحب للنبي صلَّى الله عليه وسلم؛ ما أكسبه درجة عالية من الصدق والتوفيق.

مدحه للرسول صلَّى الله عليه وسلم:

من عيون شعره قصيدته الشهيرة "البردة"، في مدح النبي محمد –صلَّى الله عليه وسلَّم– التي وقع ما يشبه الإجماع على أنها أفضل مدائح الرسول محمد صلَّى الله عليه وسلم، على الرغم من كونها جاءت بعد "بانت سعادُ"، وغيرها من مدائح الصحابة رضوان الله عليهم بأكثر من ستة قرون.

وقد قيل في سبب تأليفها أنه فُلِجَ (أيْ أصابه داء الفالج وهو المعروف في زمننا بالشلل النصفي)، فنظمها في مرضه، وتوسَّل بها إلى رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– فشُفِيَ من مرضه، كما أورد ابن شاكر في فوات الوفيات.

ولعل صدق المحبة وقوة الموهبة الشعرية اجتمعا في صياغة هذه القصيدة العصماء، فنالت هذا القبول وتلك الشهرة الواسعة في العالم الإسلامي، مما حدا بأمير شعراء العصر الحديث أن يقول:

مديحُـهُ لك حبٌ صادقٌ وهـوى   وصـادقُ الحبِّ يُملي صـادقَ الكلمِ

وسنتطرق لاحقًا إلى المقارنة بين بردة البوصيري وقصيدة نهج البردة لأحمد شوقي التي ورد فيها هذا البيت.

أمَّا الأمر المهم الذي ينبغي الالتفات إليه، والتأكيد عليه هو أن البوصيري قد وظَّف مدائحه النبوية في الردِّ على الشبهات التي كثرت وتفشَّت في عصره؛ فكان من الطبيعي لشاعر مثله مهمومًا بأمور دينه، ومشغوفًا بحبِّ وطنه أن يردَّ –من خلال قصائده– التي يسهل تداولها وانتشارها على تلك الهجمة الشرسة التي تعرَّض لها المسلمون على أيدي الصليبيين والتتار، والتي جاءت على أصعدة شتى من عسكريَّة إلى اجتماعيَّة إلى ثقافيَّة، وانتهت بسقوط بغداد سنة 656هـ(18).

استهلَّ البوصيري قصيدته بقوله:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

أَمْ هَبَّت الرِّيحُ من تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ   وَأَوْمَضَ البَرْقُ في الظَّلْمَاءِ مِنْ إضَمِ

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا   وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْـتَفِقْ يَهِمِ

أَيَحْسَبُ الصَّبُ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ   مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٌ مِنْهُ وَمُضْطَّرِمِ

وقد اتخذ شعراء المديح النبوي هذه القصيدة نموذجًا فذًّا ينسجون على منواله، فكانت من أقوى الأسباب التي حملت شعراء هذا العصر وما يليه على الإكثار من المدائح النبويَّة. كما اتخذها أصحاب البديعيات مِثالًا يحتذونه،

فعارضوها بقصائدهم وزنًا وقافية، فلم يلحقوا لصاحبها غبارًا كما يقول الإسكندري وعناني[19].

وللبوصيري قصيدة أخرى لا تقلُّ روعة وإتقانًا وجمالًا عن "البردة"، وهي قصيدته المعروفة بـ"الهمزية"، والتي جعل الرجل عنوانها: "أم القرى في مدح خير الورى"، وتعرف أيضًا بـ"الهمزية النبوية في مدح خير البريَّة"، وتبدأ هذه القصيدة بقوله:

كيفَ تَرْقَى رُقِيك الأنبياء	يا سماءَ ما طَاوَلَتها سماء
لَمْ يُساووك في عُلاكَ وَقَدْ حا	ل سنى منك دونهم وسناء
إنَّما مثلوا صِفَاتك للنَّا	س كما مثل النجم الماء
أنتَ مِصْبَاحُ كلِّ فَضْلٍ فما	تصدرُ إلا عن ضَوْئكَ الأضواء
لك ذات العلومِ من عالم	الغيْب ومنها لآدم الأسماء
صاح لا تأس إن ضعفت عن الطَّا	عة واستأثرت بها الأقوياء
إنَّ لله رَحمةً وأحقُّ النَّ	اس منه بالرَّحمةِ الضُّعَفاء
فابقَ في العرجِ عند مُنقلب الذَّو	د ففي العود تسبقُ العرجاء
لا تَقُل حاسدًا لغيركَ: هذا	أثمَرَت نَخلُه وَنَخْلي عفاء
وأتِ بالمُستطاعِ مِنْ عَمَلِ البِرِّ	فقدْ يُسقطُ الثِّمارُ الإناء

قصيدة البردة:

هي درة قصائده، فلا تكاد تُذكر حتى يُذكر صاحبها، وما يكاد يذكر صاحبها حتى يُذكِّرنا بها. ولهذه القصيدة قصة تحدَّث عنها البوصيري وأفاض عن سبب وضعه لها، يحسُنُ أن نتعرَّف عليها إذ قال: "كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، منها ما كان اقترحه عليَّ الصاحب زين الدِّين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبنى فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت فرأيت النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فمسح وجهي بيده المباركة، وألقى عليَّ بردة؛ فانتبهت ووجدت في نهضة، فقمت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحدًا فلقيني بعضُ الفقراء، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقلت: أيُّها؟ فقال: التي أنشدتها في مرضك وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ورأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة، فأعطيته إيَّاها، وذكر الفقير ذلك، وشاع المنام". وعلى الرغم من نقد الدكتور زكي مبارك وتفنيده لهذه الرواية في كتابه "الموازنة بين الشُّعراء"، فإنَّه راجع نفسه، وعدل عن ذلك في كتابه "المدائح النبوية"، فقال في هامشه: "نرى الآن أن البوصيري صادق في رؤياه، لأنَّ قوة الإيمان تؤثِّر أبلغ التأثير على الجسم، ولا سيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال: إنَّه وجد في جسمه نهضة، وذلك أقل ما يُنتظر

لرجل مؤمن يرى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام ويسمع منه التشجيع"[20].

وقد اختُلِفَ في عدد أبياتها، فهي تقع –كما يذكر حاجي خليفة في مؤلفه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"– في مائة واثنين وستين بيتًا، منها اثنا عشر بيتًا في مطلعها، وستة عشر في ذكر النَّفس وهواها، وثلاثون بيتًا في مدح الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسعة عشر في مولده، وعشرة في من أعانه ودعا له، وسبعة عشر في مدح القرآن الكريم، وثلاثة عشر في ذكر معراجه صلَّى الله عليه وسلَّم، واثنان وعشرون في جهاده صلَّى الله عليه وسلَّم، وأربعة عشر في الاستغفار، وتسعة في المناجاة، وهكذا يكون المجموع على هذا النحو 162 بيتًا. أما الدكتور زكي مبارك فقد ذكر أن عدد أبياتها 182 بيتًا[21]. أما الدكتورة فاطمة محجوب فقد رصدت في موسوعتها 167 بيتًا[22]، على الرغم من أنها ذكرت في بداية مادتها حول القصيدة أن عدد أبياتها –اعتمادًا على ما ذكره صاحب كشف الظنون– هو 162 بيتًا! في حين جاءت أبياتها في 161 بيتًا في نصها الذي أورده الدكتور أنس الفقي في نهاية بحثه القيِّم عن "الاتجاه الناقد في شعر البوصيري". أما الشاعر نفسُه فقد ذكر أن قصيدته قد أتت في 160 بيتًا، حيث قال في نهايتها:

وهذه بُردَةُ المُختارِ قد خُتِمَت ... والحمـــدُ لله في بدءٍ وفي خَتَمِ

أبياتُها قد أَتت ستين مَـعْ مائةٍ ... فرِّجْ بها كربَنا يا واسِـعَ الكرم

تبدأ قصيدة البُردة بفصل في الغزل وشكوى الغرام على نحو ما كان يفعل فطاحل الشُّعراء العرب، أوردنا منها الأبيات الأربعة التي ذكرناها آنفًا، أتبعها البوصيري بقوله:

لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ والعَلَمِ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدَتْ بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
وَأَثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى مِثْل البَهَارِ عَلَى خَدَّيك وَالعَنَمِ
نَعَمْ، سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بالأَلَمِ
يَا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً مِنِّي إِلَيْكَ، وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ
عَدَتْكَ حَالِي، لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الوُشَاةِ، ولا دَائي بِمُنْحَسِمِ
مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ في صَمَمِ
إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ في عَذَلي والشَّيْبُ أَبْعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

أما الفصل الثاني، فقد جعله البوصيري حول "التحذير من هوى النفس"، فقال:

فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ
وَلا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالكَتَمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غِوَايَتِهَا كَما يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ بِاللُّجُمِ
فَلا تَرُمْ بِالمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ، وَإِنْ تَفْطُمْهُ يَنْفَطِمِ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ | إِنَّ الهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ
وَرَاعِهَا وهي في الأَعْمَالِ سَائِمَةٌ | وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ المَرْعَى فَلَا تُسِمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ | حَيْثُ لا يَدْرِي أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
واخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ | فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلأَتْ | مِنَ المَحَارِمِ، وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
وَخَالِفِ النَّفْس وَالشَّيْطَانِ وَاعْصِهِمَا | وَإِنْ هُما مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
ولا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلا حَكَمًا | فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ
أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ | لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلا لِذِى عُقُمِ
أَمَرْتُك الخيرَ لكن ما ائتمرْتُ به | وَمَا اسْتَقَمْتُ، فَمَا قَوْلِى لَكَ اسْتَقِمِ
ولا تزودتُ قبل الموت نافلة ولم | أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصُم

أما الفصل الثالث فقد كرسه البوصيري لمدح خير خلق الله، محمد بن عبدالله، صلَّى الله عليه وعلى من والاه:

ظلمتُ سُنَّة من أحيا الظلام إلى | أن اشتكتْ قدماه الضُّرَّ مِن وَرَمِ
وشَدَّ مِن سَغَبٍ أحشاءَهُ وَطَوَى | تحت الحِجارَة كَشْحًا مُتْرَفَ الأَدمِ
وراودتْه الجبالُ الشُّمُّ مِن ذهَبٍ | عن نفسِه فأراها أيَّما شَمَمِ
وأكدت زهدَه فيها ضرورتُه إن | الضرورةَ لا تعدو على العِصَمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ | مَنْ لوْلاهُ لم تخرجِ الدنيا مِن العَدَمِ؟
محمدٌ سَيِّدُ الكونين والثقلَيْن | والفريقين مِن عُربٍ ومِن عَجَمِ

نبينا الآمــر الناهي فلا أحدٌ أبرَّ   في قـوْلِ (لا) منه ولا (نَعمِ)
هُوَ الحبيبُ الذي تُرجى شفاعتُه   لكلِ هوْلٍ مِن الأهوالِ مُقتَحَـمِ
دعا إلى الله، فالمستمسكون به   مستمسـكون بحبل غيرِ مُنفصِمِ
فاق النبيين في خَلْق وفي خُلق   ولــم يُدانوه في عِلْمٍ ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غَرفًا   مِن البحر أو رشفًا مِن الدِّيَمِ
وواقفــون لديه عند حدِّهِمِ من   نقطة العلم أو مِن شَكْلَة الحِكمِ
فهو الذي تمَّ معناه وصُورتُهُ ثم   اصطفاه حبيبًا بارئُ النَّسَـمِ
مُنزهٌ عن شريك في محاسِنهِ   فجوهرُ الحُسن فيهِ غيرُ منقسِمِ
دَعْ مَا ادَّعتْهُ النَّصارَى في نبيهِمِ   واحكم بما شئتَ مدحًا فيهِ واحتكمِ
وانسُبْ إلى ذاتِه ما شئتَ مِن شَرَفٍ   وانسُب إلى قدْرِهِ ما شِئتَ من عِظَمِ
فإن فضلَ رســولِ اللهِ ليس   لهُ حَـــدٌّ فيعربَ عنه ناطقٌ بفمِ
لو ناسَبَت قَدْرَه آياتُه عِــظَمًا   أحْيَا اسْمُهُ حين يُدعَى دارسَ الرِّمَمِ
لم يمتحــنا بما تعيا القلوب به   حرصا علينا، فلم نَرتَبْ ولم نَهِمِ
أعيا الورى فهمُ معناه؛ فليس يُرى   للقرب والبعـد منه غيرُ منفحِمِ
كالشمس تظهرُ للعينين مِـن بُعدٍ   صَغيرةً وتُكلُّ الطـرفَ مِن أمَمِ
وكيف يدركُ في الدنيا حـقيقتَه   قـومٌ نيامٌ تسـلوْا عنه بالحُـلُمِ
فمبلغ العلــم فيه أنه بشـرٌ   وأنَّه خـيرُ خـلقِ اللهِ كلهمِ
وكلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكـرامُ بها   فإنَّمـــا اتصلت مِنْ نورهِ بِهِمِ

فإنَّه شمسُ فضلٍ هُـمْ كَواكبُها ... يُظهِرنَ أنوارَها للناسِ في الظلمِ
أكرِم بخَلقِ نبيٍّ زانه خُـلُقٌ ... بالحسـنِ مُشتملٍ بالبشرِ مُتَّسِمِ
كالزهر في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ ... والبحرِ في كرمٍ والدهرِ في هِمَمِ
كأنَّه وهو فـــردٌ مِن جَلالتِه في ... عَسْكرٍ حين تلقاهُ وفي حَشَـمِ
كأنَّما اللؤلؤ المكنون في صـدَف ... مِن مَعدَنَيْ مَنطق منه ومبتَسَـمِ
لا طيبَ يعدِلُ تُربا ضـمَّ أعظُمَه ... طـوبَى لمنتشـقٍ مِنه ومُلتَثِمِ

أمَّا الفصل الرابع فقد تعرَّض فيه البوصيري لمولد الهادي –صلَّى الله عليه وسلَّم– حيث يقول:

أبان مولدُه عن حسنِ عُنصـرِهِ ... يا طيب مـبتدأ منه ومختتـمِ
يومَ تفرَّس فيه الفرسُ أنهـم ... قد أنذِروا بحلول البؤسِ والنِّقمِ
وبات إيوان كسرى وهو مُنصَدِعٌ ... كشمْلِ أصحابِ كسرى غيرِ مُلتئمِ
والنَّارُ خامدةُ الأنفاسِ مِن أسفٍ ... عليهِ والنهرُ سَاهِي العيْنِ مِن سَدَمِ
وساءَ ساوَةَ أن غاضت بُحيْرتُها ... ورُدَّ واردُها بالغيضِ حِـينَ ظَمِ
كأنَّ بالنَّار ما بالماء مـن بلل ... حُزنًا وبالماء ما بالنارِ من ضَرَمِ!
والجنُّ تهتف والأنوار ساطعةٌ ... والحقُّ يظهرُ مِن مَعْنًى ومِن كَلِمِ
عموا وصمُّوا فإعلان البشائِرِ ... لم تُسْـمَعْ وبارقةُ الإنذار لم تُشَمِ
من بعد ما أخبرَ الأقوامَ كاهِنُهُم ... بأن دينهـــمُ المُعوجَّ لم يَقُمِ
وبعد ما عاينوا في الأفْقِ من شُهُبٍ ... مُنْقَضَةٍ وِفْقَ ما في الأرضِ مِن صَنَمِ

حتى غدا عن طريق الوَحي مُنهزمٌ مـن الشياطين يقفو إثْرَ مُنهَـزم

كأنهم -هربًا- أبطـــالَ أبْرَهَةٍ أو عَسْكَرٌ بالحَصَى من راحَتيْه رُمِي

نبذًا به بعدَ تســبيحٍ ببطنِهما نبذَ المُســبِّحِ من أحشاءِ مُلتَقِمِ

أمَّا الفصل الخامس من هذه القصيدة فقد أداره البوصيري حول مُعجزات النبي صلَّى الله عليه وسلم، حيث يقول:

جاءت لدعوتِه الأشجارُ ساجدةً تمشـي إليه على ساقٍ بلا قدَمِ

كأنما سَطَرَت سَطرا لِمَا كتبتْ فروعُها من بديع الخط بالَّقلمِ

مثل الغمامةِ أنَّى سارَ سَائِرَةٌ تقيه حــرَّ وطِيسٍ للهجيرِ حَمِى

أقسمتُ بالقمرِ المُنشقِّ إنَّ لهُ مِـن قلبِه نِسبةً مبرورةَ القسَمِ

وما حَوَى الغارُ مِن خيرٍ ومِن كرمٍ وكلُّ طرْفٍ مِن الكفارِ عَنهُ عَمى

فالصدقُ في الغار والصِّديقُ لم يَرِمَا وهم يقولون ما بالغـارِ مِن أَرِمِ

ظنُّوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنْسِـج ولم تَحُمِ

وقايةُ الله أغنت عــن مُضاعفةٍ من الدُّروع وعن عالٍ من الأُطُمِ

ما سامني الدهرُ ضيْما واستجرْتُ به إلا ونلتُ جِـوارا منه لـم يُضَمِ

ولا التمست غِنى الدَّارين من يده إلا استلمت النَّدى من خيرِ مُستلمِ

لا تُنكروا الوحى من رؤياهُ؛ إن له قلبًا إذا نامت العينان لم ينـمِ

وذاك حين بلوغٍ مـــن نبوته فليس يُنكَرُ فيه حالُ مُحْتَلِـمِ

تبارك اللهُ! ما وحىٌ بمُكتسـبٍ ولا نبيٌ عـلى غـيبٍ بمتهمِ

كم أبرأت وَصِبًا باللمسِ راحتُهُ وأطلقت إربا مـن رِبقةِ اللمـمِ
وأحيَتِ السَّنةَ الشهباءَ دعـوتُه حتى حكت غُرةً في الأعصُر الدُّهُمِ
بعارضٍ جادَ أو خِلتَ البِطاحَ بها سَيْباً مـن اليَمِّ أو سيلا من العَرِمِ

أما الفصل السادس فقد كرَّسه البوصيري لمدح القرآن الكريم وبيان شرفه العظيم، وفي ذلك يقول:

دَعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ ظهور نار القِرَى ليْلا علـى عَلَمِ
فالدُّرُّ يزداد حُسنا وهو منتظمٌ وليس ينقُص قدرًا غيْرَ مُنتظِمِ
فما تطاوُلُ آمالِ المديحِ إلى ما فيه من كرمِ الأخلاقِ والشيَمِ
آياتُ حقٍّ من الرحمـن مُحكمةٌ قديمة صِـفةُ الموصوفِ بالقِدَمِ
لم تقترن بزمان وهي تُخبرُنا عن المعادِ وعن عادٍ وعن إرَمِ
دامت لدينا ففاقت كلَّ مُعجزة من النبيين إذ جـاءت ولم تدُمِ
مُحكَّماتٌ فما تُبقين مـن شُبَهٍ لذي شِقاقٍ ولا تبغِين مـن حَكَمِ
ما حوربت قط إلا عاد من حربٍ أعْدَى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ
ردت بلاغتُها دعوى مُعارِضِها ردَّ الغيور يدَ الجاني عن الحُرَمِ
لها معانٍ كموج البحر في مَدَدٍ وفوق جوهره في الحُسْن والقِيَمِ
فما تُعَدُّ ولا تُحصَى عجائِبُها ولا تُسامُ عـلـى الإكثار بالسَّأمِ
قرَّت بها عين قاريها فقلتُ له لقد ظـفرت بحبل الله فاعتصِمِ
إن تتلُها خِيفةً مِن حرِّ نار لظيٍّ أطفأت حرَّ لظى مِنْ وِردِها الشَّيمِ

كأنَّها الحيضُ تبيضُّ الوجوهُ به ... من العصــاة وقد جاءوه كالحُمَمِ
وكالصراط وكالمِيزان مَعدِلةً ... فالقِسطُ من غيرها في الناس لم يَقُم
لا تعجبنَّ لِحسودٍ راح يُنكرُها ... تجاهُلًا وهــو عينُ الحاذِق الفهِم
قد تُنكر العين ضوءِ الشمس من رمدٍ ... ويُنكر الفم طعم المـاء من سِقَم

أمَّا الفصل السابع، فقد جعله البوصيري في وصف حادث الإسراء ومعجزة المعراج، على النحو التالي:

يا خير من يَمَّمَ العافون ساحته ... سعيًا وفوق متون الأيْنُقِ الرُّسُم
ومن هوَ الآيةُ الكبرى لِمُعتبِرٍ ... ومن هو النِّعمة العظمـى لِمُغتنِمِ
سَريْتَ من حَرَم ليلا إلى حرمٍ كما ... سَرَى البدرُ في داجٍ من الظلم
وبِتَّ ترقى على أن نِلتَ منزلة ... مِن قاب قوسيْن لم تدرَك ولم تُرَم
وقدَّمتك جميعُ الأنبياءِ بِها ... والرسلِ تقديمَ مخدومٍ على خدَمِ
وأنت تخترقُ السبعَ الطِّباق بهم ... في موكبٍ كنتَ فيه وصاحِبَ العَلَم
حتى إذا لم تَدَع شأوًا لمُستبقٍ ... من الدُّنُوِّ ولا مَرْقى لِمُســتنمِ
خَفَضْتَ كلَّ مقامٍ بالإضافة إذْ ... نودِيتَ بالرَّفع مِثلَ المُفردِ العَلمِ
كيما تفوزَ بوصلٍ أيِّ مُستَتِرٍ ... عن العيون سرٍّ أيِّ مُكتَتَــمِ
فحُزتَ كلَّ فخارٍ غيرَ مُشتَرَكٍ ... وجُزتَ كل مَقام غير مُزدَحَـمِ
وجلَّ مِقدارُ ما وُلِّيتَ من رُتَبٍ ... وعزَّ إدراكُ ما أولِيتَ من نِعَـمِ
بُشرى لنا معشرَ الإسلامَ؛ إنَّ ... لنا من العناية رُكنًا غيرَ مُنهـدِمِ

لمَّا دعا اللهَ داعينا لِطاعته بأكرمِ الرُّسْلِ كنا أكرمَ الأممِ

أما الفصل الثامن فقد نوَّه فيه البوصيري –طيَّب الله ثراه– بجهاد النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– إذ قال:

راعت قلوبَ العِدا أنباءُ بعثته كنبأةٍ أجفلت غَفلاً مِن الغَنَمِ

ما زال يلقاهم في كل مُعْتَرَكٍ حتى حكَوْا بِالقَنا لَحْما على وَضَمِ

وَدُّوا الفِرارَ فكادوا يَغبِطون بهِ أشلاءَ شالت مع العقبانِ والرَّخَمِ

تمضي الليالي ولا يَدْرون عِدَّتَها ما لم تكن من ليالِي الأشهُرِ الحُرُمِ

كأنَّما الدِّين ضيف حلَّ ساحتَهُم بكل قَرمٍ إلى لَحْمِ العِدا قَرِمِ

يَجُرُّ لحمَ خميسٍ فوقَ سابحَةٍ ترمي بموجٍ من الأبطال مُلتَطِمِ

من كل منتَدِبٍ لله مُحتَسِبٍ يسطو بمُستأصِلٍ للكُفرِ مُصطلِمِ

حتى غدت ملةُ الإسلامِ وهي بهمْ من بعد غربتِها موصولةَ الرَّحِمِ

مكفولةً أبدًا منهم بخيْر أبٍ وخيرِ بعلٍ فلم تيْتَم ولم تَئِمِ

همُ الجبالُ فسَل عنهمْ مُصادِمَهم ماذا رأى منهمُ في كل مُصطَدَمِ

وسلْ حُنينًا وسلْ بدرا وسل أُحُدًا فصولُ حتْفٍ لهم أدهى من الوَخَمِ

المُصدرى البيض حُمْرًا بعد ما وردَت من العِدا كلَّ مُسْوَدٍّ من اللَّمَمِ

والكاتِبين بسُمْر الخطِّ ما تركت أقلامُهم حرف جسمٍ غيرَ مُنعَجِمِ

شاكِي السِّلاحِ سِيمَا تُميِّزُهم والوَردُ يمتازُ بالسِّيما من السَّلَمِ

تُهدي إليك رياحُ النصر نشْرَهمُ فتحسبُ الزهرَ في الأكمام كلَّ كَمِي

كأنهم في ظُهور الخيْل نبتُ رُبًا ... من شِدَّةِ الحزْم لا من شدة الحُزُمِ
طارت قلوبُ العِدا من بأسهمُ ... فَرَقًا فما تُفَرّقْ بين البَهْم والبُهُـم
ومَن تكن برســول الله نصرتُه ... إن تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ
ولن ترى من وليّ غيرِ منتَصِرٍ ... به ولا مــن عَدُوٍّ غيرِ منقصِمِ
أحـلَّ أمـته في حِرزِ مِلَّتِهِ ... كالليثِ حلَّ مع الأشبال في أجَمِ
كمْ جدَّلتْ كلماتُ الله من جدِلٍ فيه ... وكم خَصَمَ لبُرهانُ من خصِمِ
كفاكَ بالِعلم في الأميِّ مُعجزةً ... في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتُمِ

وقد توسَّل في الفصل التَّاسع من قصيدته بالمصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأتمَّ التسليم؛ حيث يقول:

خَدَمْتُه بمديح أستقيلُ به ذنوبَ ... عُمْرٍ مضى في الشِّعر والخِدَمِ
إذ قلَّداني ما تُخشى عواقِبُه ... كأنَّني بهما هَدْيٌ مـن النَّعمِ
أطعتُ غَيَّ الصِّبا في الحالتيْن ... وما حَصَلْت إلا على الآثامِ والنَّدَمِ
فيا خَسارةَ نفسٍ في تِجارتِها لم ... تشترِ الدِّين بالدنيا ولن تَسُمِ
ومن يبعْ آجلا منه بعاجلِهِ ... يبِنْ له الغبْنُ في بيْعٍ وفي سَلَمِ
إنْ آتِ ذنبًا فما عهدي بمُنتَقِضٍ ... من النبي ولا حَبْلِى بمُنصَرِمِ
فإن لي ذِمةً منه بتسـميَتِي مُحمدًا ... وهو أوفى الخلق بالذِمَمِ
إن لم يكن في مَعَادي آخِذًا بيَدي ... فضلًا وإلا فقُلْ: يا زلَّةَ القدمِ
حاشاه أن يَحرمَ الرَّاجي مكارِمَه ... أو يَرجعَ الجارُ منهُ غيرَ مُحْتَرِمِ

ومنذُ ألزمتُ أفكاري مـدائحهُ   وجدتُهُ لخـلاصِي خيْرَ مُلتَزِمِ

ولن يفوتَ الغِني منهُ يدًا تَرِبَتْ   إنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأزهارَ في الأكَمِ

ولمْ أرِدْ زهرة الدنيا التي اقتطفت   يدا زُهيْر بما أثنى على هَرِمِ

أما الفصل العاشر فقد جعله الشاعر للمناجاة وعرض الحاجات، فجاء به البوصيري على النَّحو التالي:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سِواك عند حُلول الحادِث العَمِمِ

ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي   إذا الكريـمُ تحلى بِاسْمِ مُنتقِم

فإن من جودك الدنيا وضَرَّتها   ومن علومك علم اللوح والقلـم

يا نفس لا تقنطي من زَلَّة عَظُمتْ   إن الكبائر في الغـفران كاللَّمـم

لعل رحمةَ ربي حين يقسِـمُها تأتي   على حَسَب العِصْيان في القِسَم

ياربِّ واجعل رجائي غيرَ مُنعكِسٍ   لديْك، واجعل حِسابي غير مُنخرم

والطفْ بعبدكَ في الداريْن؛ إن   له صبرًا متى تدْعُهُ الأهوالُ ينهزِمِ

وأْذنْ لسُحْب صلاةٍ منك دائمـةٍ   على النبي بمُنْهَلٍّ منه ومُنْسَـجِمِ

ما رَنَّحَتْ عَذَباتِ البان ريحُ صَبًا   وأطرَبَ العِيسَ حادِي العيسِ بالنَّغمِ

ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمرٍ   وعن عليّ وعن عثمان ذي الكرم

والآل والصحب ثم التابعين فهـم   أهل التُّقى والنَّقا والحلـم والكرم

يا ربِّ بالمصطفى بلغ مقاصدَنا   واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

واغفر إلهي لكل المسلمين بمـا يتلوه   في المسجد الأقصى وفى الحرم

بجاه مَن بَيْتُهُ في طيبةٍ حـرمٌ واسمُهُ قَسَمٌ من أعظم القسَمِ

وهذه بـردة المُختار قد خُتِمَت والحمــد لله في بدءٍ وفى خَتَمِ

أبياتها قد أتت ستين مَـعْ مائةٍ[23] فرِّجْ بها كربَنا يا واسِــعَ الكرم[24]

أثر البردة في اللغة والأدب العربي:

والبوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثر في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن البردة تلقّى النَّاسُ طوائف من الألفاظ والتعابير أثْرت بها لغة التخاطب بينهم، وعن البردة عرفوا أبوابًا من السيرة النبويَّة، وعن البردة تلقوا دروسا بليغة في كرم الشَّمائل والخِلال، وكذلك استطاع البوصيري بتصوُّفه أن يؤثِّر في الأدب والأخلاق تأثيرًا لا يدرك كنهه إلا مَن رأى كيف تدور البردة على ألسِنَةِ العوام، وكيف تهذِّب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخِصال، وليس من القليل أن تنفَذ هذه القصيدة بسحرها الأخَّاذ إلى مختلف الأقطار الإسلاميَّة، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها، من وسائل التقرُّب إلى الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلم.

وقد كان للبردة أيضًا أثرها في التأليف والتصنيف نظرًا لما وضِع لها من الشروح الكثيرة، التي كانت تُعقد لها الدروس وتتلقاها جماهير غفيرة من الطلاب، لاسيما في يومي الخميس والجمعة، خلال أوقات الفراغ.

أما أثرها في الشِّعر والشُّعراء فعظيم جدًّا، فقد ضمَّنوها، وشطروها، وخمسوها وسبعوها وعشروها وعارضوها، ونسجوا على منوالها. ومن شعراء

العصر الحديث الذين أُعجبوا بهذه القصيدة، وعارضوها قلبًا وقالبًا أمير شعراء العصر الحديث أحمد شوقي – رحمه الله.

بين البوصيري وشوقي:

مَدْحُ الرسول الكريم محمد بن عبدالله –صلَّى الله عليه وسلَّم– من الموضوعات الأثيرة، التي دبَّج فيها الشُّعراء قصائدهم منذ بعثته صلَّى الله عليه وسلَّم وحتى يومنا هذا، ولكن البوصيري قد تفوَّق عليهم تفوقًا واضحًا في قصيدتيه: الهمزية والبُردة، فرأى أمير الشُّعراء أحمد شوقي أن يعارضه، وأن ينسج على منواله قصيدتيه الهمزية والميمية. وعلى الرغم من تصريح شوقي بتقليد الشُّعراء للبوصيري في مدحهم للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، واقتفائهم أثر "صاحب البردة" في قصائدهم وأشعارهم، فقد أظهر في الوقت نفسه إنكاره لهذه المعارضة في قصيدته "نهج البردة"، وإنَّما هي الغبطة التي حَدَت به إلى تَرَسُّم خُطاه، حينما قال:

المادحون وأرباب الهوى تَبع ... لصاحبِ البُردةِ الفَيْحاء ذي القدم

واللهُ يَشهدُ أنِّي لا أُعَارِضه مَن ... ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنَّما أنا بعض الغابطين ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

مديحه لك حب صادق وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم

ويلمح النَّاقد الكبير الدكتور شوقي ضيف أثرًا واضحًا لهذا التقليد وهذه المعارضة(25)، بل وفي اختيار الألفاظ ذاتها، والقاموس اللُّغوي الخاصّ

بالبوصيري، في مواضع متعددة في مفتتح قصيدة شوقي، ففي حين يستهل البوصيري قصيدته بهذه الأبيات:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعًا جرى من مُقْلَة بدم
لولا الـهوى لم ترقَ دمعًا على طَلل ... ولا أرَّقت لذكـرِ البانِ والعلم
يا لائمي في الهوى العُذْري معذرة ... مـني إليك ولـو أنصـفت لم تلم
محضتني النصح لكن لست أسمعه ... إنَّ المُحب عن العُذَّال في صــمم

نجد شوق يفتتح قصيدته هكذا:

ريمٌ على القاعِ بين البَانِ والعلَمِ ... أحلَّ سفكَ دَمي في الأشْهُر الحُرُم
يا لائمي في هواهُ والهَوى قَدَرٌ ... لو شـفَّكَ الوجدُ لم تعذِل ولم تلم
لقد أنلتك أُذُنًا غـيرَ واعيةٍ ... ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ في صَمَم

ولعلَّ التَّشابه في الأبيات سالفة الذِّكر من القصيدتين لا يحتاج إلى تعليق. وعلى طريقته في المعارضات، حاول شوقي أن يُدخِلَ في قصيدته عناصر وأفكارًا جديدة، طبقًا للمُتغيرات التي حدثت خلال هذه الفترة الزمنية المُنصرمة منذ عهد البوصيري إلى زمن شوقي، رحمهما الله.

أما الهمزية فافتتحها شوقي بقوله المشهور:

وُلِدَ الهُدى فالكائناتُ ضِـياءُ ... وَفَـمُ الزَّمـانِ تبسُّم وثناءُ

ثم يقول الدُّكتور ضيف: ولم يُبقِ شوقي للبوصيري معنى طريفًا إلا حاول نَسْجَهُ في حُلَّة قشيبة أو صُنعه في درة يتيمة، وما زال حتى تعرَّض للإسلام ودعوته للتوحيد، ونظامه السياسي والاجتماعي(26)، فقال:

الاشـتراكيون أنتَ إمامُـهم لولا دَعاوى القومِ والغلواءُ
داويت مُتئدًا وداووا طفـرةً وأخف من بعض الدواء الداء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكلُّ في حقِ الحياةِ سـواء
فلو أنَّ إنســانًا تخيَّر مِلَّة ما اختار إلا دينك الفقراء

وقد تأثَّرت جماهير العالم الإسلامي كلُّه بقصيدة البوصيري: "البردة" أيَّما تأثير، وفي هذا يقول عنها شيخ العروبة أحمد زكي: طالما عارض النَّاس بردة البوصيري في القديم والحديث بمئات ومئات من القصائد والمنظومات، لكنَّ الصيت بقي لهذه البردة وحدها حتى الآن. على أن قصيدة أحمد شوقي "نهج البردة"، وإن لم تزحزحها عن مكانتها، فإنِّها قد نالت شرفًا ليس له نظير؛ ذلك بأنَّ الأستاذ الأكبر الذي انتهت إليه وبه سلسلة الحديث النبوي في مصر، الشيخ سليم البشري، مع جلالة قدره وسمو منزلته ورفيع مقامه، قد تولَّى بنفسه وقلمه شرْح هذه القصيدة، وقد صاغها شوقي وهو ما زال في سن الفُتُوَّة وطراءة الشباب، لكنَّ براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها، ويقدِّرُ ناظمها، ثم يتوفر على شرحها، وما رأى النَّاس لذلك مثيلًا قبل شوقي[27].

وبعد هذا كله لا يرى النَّاقد الكبير الدكتور شوقي ضيف في أمير الشُّعراء شوقي إلا أنَّه صانع ماهر ذكي، يعرف جيدًا ما يريده "السوق" فيصنعه له، وفي هذا – بلا شك– نوع من تملُّق الجماهير، كما يصنع بعض الساسة! وربما لهذا كتب النَّاقد الكبير ما كتبه، حول المقارنة بين الشاعرين الكبيرين، تحت عنوان: "الجمهور والصحف"[28]، وعلى حد قول الدكتور ضيف نفسه: "يُلاحَظ على

شوقي وغيره في أواخر القرن الماضي (يقصد القرن التَّاسع عشر) وفي أثناء القرن العشرين أنهم أخذوا يتأثرون بالجمهور أكثر مما كان يتأثَّر أسلافهم، بل كان تأثُّر الأسلاف بالجمهور يكاد يكون معدومًا، فقد أحدثت المطبعة حدثًا هامًّا في حياتنا العامَّة، أو قُل أخذت تحدثه، وهو الصحف التي تتخاطب مع عدد واسع من القراء. فلم يكتفِ الشُّعراء بنشر شعرهم عن طريق الدواوين، بل أخذوا ينشرونه عن طريق الصُّحف، وأهَّل ذلك لتطور واسع في شعرنا الحديث عند شوقي ونظرائه من أمثال حافظ[29]. في حين يرى الدكتور زكي مبارك أن الإخلاص هو الذي مَكَّن الإمام البوصيري من ناصية المجد الأدبي، وهو الذي رفعه إلى منزلة الخلود[30].

ومع احترامنا لوجهة نظر أستاذنا الدكتور ضيف وتحليلاته فإننا أمام "نهج البردة" بإزاء نص رائع يجعل قارئه يقف مشدوهًا أمام عبقرية شوقي الشِّعرية، وقدرته الفائقة على الوصف ودقة التَّصوير، وبراعة انتقاء الألفاظ المحمَّلة بمعانٍ سامية تليق بعظمة نبينا، وسموِّ قدْر رسولنا الكريم، وبعد كل هذا وقبله لا يستطيع أحد أن يفتِّش في الضمائر لكي يبني حكمًا نقديًّا مثل هذا، فنحن أمام نصٍّ يفرضُ معطياته على قارئه وناقده على السواء.

ومن الدِّراسات المقارنة الهامة بين "بردة" البوصيري –رحمة الله الواسعة عليه– و"نهج البردة" لشوقي –رحمه الله، لا سيما في المقارنة بينهما في ذكرهما لمعجزتي "الإسراء والمعراج"، تأتي دراسة قام بها ناقد آخر هو الدكتور أحمد الحوفي –رحمه الله– في مؤلفه "تأملات إسلاميَّة"، وهي دراسة بها وقفات كثيرة

مع شوقي، ونقدات في مواضعها جديرة بالاطلاع، في حين يقف الدكتور الحوفي مع البوصيري وقفة واحدة؛ حيث يقول: ويسترعى نظرنا قول البوصيري:

خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المُفرد العلم

وهو قول مُثقل باصطلاحات نحويَّة كانت سببًا في ركاكة التعبير(31). وفي الجانب الآخر فقد أثنى على شوقي في قوله:

وقيل كلٌّ نبي عـند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستلم

وعلَّق على ذلك بقوله: لأنَّ هذه الصورة جمعت بين الأمر المُطاع، والاستماع المستجيب، والحركة المرتَّبة، ونداء الحبيب لحبيبه، واللَّمس المأمول، وإني لأشعر في كلِّ مرة أسمع فيها هذا البيت أو أقرؤه بهزة وإعجاب بجمال الصورة، وجلال المنظر، وبراعة التصوير(32). ونحن بدورنا نتفق تمامًا مع وجهة نظر أستاذنا الدكتور الحوفي –رحمه الله– فيما ارتآه، لكن تبقى ميزة السبق للإمام البوصيري، واللاحق يفيد من السابق. ومن جهة أخرى لا ننسى عوامل البيئة والنشأة وطبيعة العصر الذي عاش فيه كل منهما، إلى غير هذا وذاك من عوامل، فلابد أن يتأثر المعلم بما يزاوله في عمله اليومي من مفردات دروسه ومصطلحاتها، كما أن شوقي الذي كان يعيش في كنف السلطان –في وقت من الأوقات– لا بد أن يتأثَّر هو أيضًا ببيئته، وبما يموج بها ويعتمل فيها من عوامل وأنشطة، ورجال ذات رتب تدخل وتخرج من بلاط المُلك وساحة عرش سلطان البلاد؛ وعلى هذا فليس من المستغرب أن كلًّا منهما قد تأَّثر قاموسه اللُّغوي بمناخه الذي أحاط به وعاش فيه، واستمد تلقائيًّا بعض مفرداته من بيئته تلك.

المصادر والتعليقات

(1) ابن سلام الجمحي (2001): "طبقات فحول الشُّعراء"، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، الجزء الأول، ص24.

(2) ابن قتيبة الدِّينوري (2003): "عيون الأخبار"، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، الجزء الثاني، ص168.

(3) تفسير ابن كثير (1999)، الجزء 6، دار طيبة للنَّشر والتَّوزيع، ط2، المملكة العربيَّة السعوديَّة، ص175.

(4) دكتور طه البودي (1991)، الموقف النقدي من الشِّعر الإسلامي في عصر المخضرمين، مجلة عالم الفكر، المجلد 21، العدد الثاني، ص61 -81.

(5) محمد عبدالغني حسن (1983): "مصر الشاعرة في العصر الأموي"، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، ص8.

(6) دكتور عبدالحميد العبادي & دكتور محمد مصطفى زيادة & دكتور إبراهيم العدوي (1954): "الدولة الإسلاميَّة: تاريخها وحضارتها"، مطابع المصري بالقاهرة، ص207.

(7) دكتور عبداللطيف حمزة (2006): "الحركة الفكريَّة في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأوَّل"، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ص95.

(8) بولعشار مرسلي (2015): "الشِّعر الصُّوفي في ضوء القراءات النقديَّة الحديثة"، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، كليَّة الآداب والفنون، جامعة وهران، أحمد بن بلة 1، الجزائر، ص15.

(9) الدكتور علي صافي حسين (1964): "الأدب الصُّوفي في مصر في القرن السابع الهجري"، سلسلة مكتبة الدِّراسات الأدبيَّة، العدد رقم 34، دار المعارف بمصر.

(10) المصدر السابق 7، ص 95، 96.

(11) زينب عبدالأمير القيسي (2012): "الاغتراب في أدب أبي حيان التوحيدي"، مجلة كلِّية الإمام الأعظم الجامعة، العدد 15، العراق، ص443.

(12) عبدالعال الحمامصي (1978): "البوصيري المادح الأعظم للرسول"، دار المعارف بمصر، ص24.

(13) الدكتور شوقي ضيف (1994): "فصول في الشِّعر ونقده"، دار المعارف، مصر، ص233.

(14) الدكتور أنس عطية الفقي (2008): "الاتجاه الناقد في شعر البوصيري"، المكتبة العالميَّة للنَّشر والتَّوزيع، مدينة السادس من أكتوبر، الجيزة، مصر، ص6.

(15) المصدر السابق، ص6.

(16) الدكتور زكي مبارك (2003): "المدائح النَّبويَّة في الأدب العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، سلسلة ذاكرة الكتابة، ص191.

(17) الدكتور عبدالرءوف كينيدي أبيأوي (2017): "البعد الصوفي في قصيدة البردة"، مجلة العاصمة، قسم اللُّغة العربيَّة، كلِّية الجامعة ترونتتبرم، كيرالا، الهند، المجلد التاسع، ص224-227.

(18) الدكتور أنس عطية الفقي، مصدر سابق، ص94.

(19) الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى العناني (1978): "الوسيط في الأدب العربي وتاريخه"، دار المعارف، مصر ، ص312.

(20) الدكتور زكي مبارك، مرجع سابق، ص197.

(21) المصدر السابق، ص201.

(22) الدكتورة فاطمة محجوب (1990): "الموسوعة الذهبيَّة للعلوم الإسلاميَّة"، المجلد السادس، دار الغد العربي بالقاهرة، ص613.

(23) الرقم الذي أورده البوصيري هنا والذي يشير إلى عدد أبيات القصيدة قد يكون على وجه التقريب وليس على التحديد؛ أيْ أبياتها التي وصل عددها قرابة 160 بيتًا.

(24) الإمام أبي عبدالله محمد بن سليمان الجزولي (1985) هامش كتاب: "دلائل الخيرات"، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ص234-263.

(25) الدكتور شوقي ضيف، المصدر السابق، رقم 13، ص246.

(26) الدكتور شوقي ضيف (2010): "شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف (طبعة مكتبة الأسرة)، القاهرة، ص127.

(27) أحمد عبيد (ب. ت)، ذكرى الشاعرين، فصل بقلم شيخ العروبة أحمد زكي باشا، المكتبة العربيَّة بدمشق، القسم الثاني، ص331.

(28) الدكتور شوقي ضيف، المصدر السابق، ص121.

(29) المصدر السابق، ص123.

(30) الدكتور زكي مبارك، مرجع سابق، ص226.

(31) الدكتور أحمد الحوفي (1988): "تأملات إسلامية"، الطبعة الأولى، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة، ص98.

(32) المصدر السابق، ص102.